

قضية الأطفال

لحضرة الأستاذ زكي المهندس

أستاذ التربية بدار العلوم

نعم هي قضية ولكنها ليست من هذا الطراز الذي ألف الناس أن يقرءوه في الصحف أو يتنادروا به في مجالسهم ويسمروا به مع رفاقهم بل هي قضية لها شأنها وخطرها ، ولها أثرها البعيد في حياتنا جميعا كآباء ومعلمين . وما ظنك بقضية تناول مئات الألوف من أحداث مصر ؟ بل ما ظنك بقضية يتوقف على الفصل فيها حياة الجيل المقبل بأسره ؟ أليس أطفال اليوم هم شباب الغد ورجال المستقبل ؟ تلك القضية هي التي سأحدث إليك فيها

في مثل هذه الأيام من العام الماضي قامت وزارة المعارف بتغيير واسع النطاق في منهاج التعليم الثانوي فتناولته بالحذف والتحويل ونقل بعض المواد أو الموضوعات الدراسية من سنة إلى أخرى وقد حمد لها الشباب المتعلم هذا الصنيع ، واليوم تقوم الوزارة بعقد اللجان المختلفة لدراسة المنهاج الابتدائي تمهيدا لتغييره كذلك

وإن تلك الطفولة البريئة الظاهرة التي تزخر بها مدارسنا الابتدائية لتغيب أشد الاغتياب إذ تلقى اليوم بقضيتها في اطمئنان وثقة بين جمع من ذوى الكفاية الممتازة والخبرة الناضجة من أهل التعليم والتشريع مؤملة أن تجد في حضراتهم خير مدافعين عن حقوقها ، وهي لا تبغ شيئا أكثر من أن يسمح لها بأن تستمتع بتلك الحياة الطبيعية الخصبة تلك

الحياة الواسعة الباسمة الحرة البريئة : تلك الحياة التي أبت المدارس بنظمها الجامدة وأساليبها المصطنعة ومناهجها المكتظة الحافلة وامتحاناتها المتوالية إلا أن تحولها إلى حياة عابسة راكدة مجذبة ضيقة ذهبت بخير ما في الطفولة من مزايا وقضت أو كادت تقضى على مامنحة الطبيعة من مواهب .

إن سنة ١٩٢٥ تعتبر بحق حداً فاصلاً بين عهدين من عهد التعليم في مصر فقد بدأت في تلك السنة نهضة تعليمية لم تكن في شدتها وعنفها بأقل من ثورتنا السياسية . كلنا يذكر أن النظام التعليمي القديم كان يرمى في مجموعه إلى صوغ آلات تسخر للحكومة ولا تصلح إلا لمكاتب الحكومة ولقد كان الجزع يتولانا أحياناً وانفاق يساورنا دائماً كلما ذكرنا مصير أبنائنا وفلذات أكبادنا فلم يكن غريباً - وقد أصبحنا أحراراً في تدبير شؤوننا - أن نثور على هذا النظام العتيق الذي تعلمنا في ظله وفي كفة نصف قرن كامل ، على أن ثورتنا في هذه الناحية التعليمية لم تكن وليدة يومها ولا بنت ساعاتها وإنما كانت تعبيراً صادقاً عما كنا نحسه ونألم له ونخشى الخوض فيه هاجمنا هذا النظام القديم من جميع جوانبه ونواحيه ، هاجمناه في خططه ومناهجه وطرائقه وأساليبه ، هاجمناه في غاياته ووسائله وفي جميع مراحله ، هاجمناه في كل ذلك في غير رفق أو هوادة ، ولكن الذي لا يسع كل إنسان إلا أن يلاحظه ويأسف له ، هو أننا ظلمنا نجهد عشر سنوات كاملة في تجارب تعليمية من كل صنف ثم لم نظفر بعد تلك الجهود التي بذلناها بنتائج تطفئنا إليها قلوبنا ، وترتاح لها نفوسنا ، فالمناهج تتغير اليوم كما تغيرت بالأمس وقبل الأمس ، وكما تغيرت في سنة ١٩٢٥ ، وكما نخشى أن تتغير غداً وبعد غد .

فقد إن أخطأنا التوفيق في كشف العلة واستئصال الداء نحن أول من يدرك أن حياتنا تطورت في جميع مناحيها تطورا يتجاوز في طبيعته ومباده ما كان يحلم به . أصدق الكتاب قراءة وأبعدهم نظراً ،

ونحن أول من يدرك كذلك أن القائمين على شئون التعليم ييغون اليوم من تغيير المناهج - كما كانوا ييغون دائماً من كل تغيير سابق - أن يستحدثوا نوعاً من التعليم يسائر حاجات البلاد ويلائم ما تطمح إليه الأمة من مقاصد وما ترمى إليه من آمال ، نحن ندرك هذا وؤمن به ، ولكننا يجب أن نعلم بأن اختلاف الطرائق وتشعب المسالك ، وتعدد الأساليب لتحقيق هذه الغاية المرجوة تدأفضى كل ذلك إلى شيء من الإسراف في جهود رجال التعليم كما أدأى إلى شيء من الاضطراب كان له أثره في عمل المعلم والمتعلم كليهما .

حسبك أن تجوس بذا كرتك خلال السنوات العشر الماضية لتدرك أن جميع من تولوا مقاليد الوزارة وهيمنوا على التعليم كانوا دائماً جد حريصين على وضع سياسة تعليمية ثابتة ، ولكنهم كانوا يعملون على تحقيق هذه الغاية بطرق مختلفة وأساليب شتى ، فقد كانت اللجان تؤلف أحياناً من رجال الديوان وحدهم ، وأحياناً يضم إليهم بعض المتصلين بالمدارس عن كئيب من نظار ومدرسين . وآونة يشترك مع هؤلاء جمع من ذوى الكفايات الفنية والثقافات العالية ، وإن ننس لانس ذلك المؤتمر الحاشد الذى جمعه وزير المعارف السابق ، فقد كان قوامه كبار رجال التعليم ومديرى المصالح الفنية فى مصر ، ومدير الجامعة وعمدها . دأنا إلى عدد كبير من القائمين على التعليم فى المدارس الأجنبية ممن لم تطأ أقدامهم شارع الطريقة الغربى غير مرة واحدة كانت هى الأولى والأخيرة . لم يكده هذا المؤتمر يجتمع حتى تفرق ولم يكده يتفرق حتى أصبح - كما قال النحويون - فى خبر كان ليس له - ذاك كله إلا تأويل واحد ، هو أن العلة ما زالت كامنة والداء ما قئى دفيناً فى بعض النواحي من نظامنا التعليمى ، وأن جميع ما قئنا به من تجارب وكل ما أدخلناه من ضروب التبديل ، وما استصدرناه من لوائح

وقوانين ومنشورات قد عجز إلى الآن عن كشف العلة واستئصال الداء
أو عجز على الأقل عن تدبير الدواء الصالح
هذه ملاحظات عامة نسوقها بكل تواضع لتكون بمرأى من حضرات
السادة أعضاء اللجان لعلمهم واجدون فيها ما يضيء السبيل أمامهم ولكننا
نتحدث هنا عن قضية الأطفال

أما أن التعليم الابتدائي لا يزال في حاجة إلى تغيير واسع النطاق فما
لا يختلف فيه رجال التعليم، ولكن أين موطن العيب في هذا النوع من
التعليم؟ وإلى أي النواحي يجب أن نولي وجوهنا لكشف هذا العيب
وعلاجه؟ فهل الفكرة العامة التي تسيطر على تعليم النشء الصغير خاطئة
أو قاصرة، أو أن أعمال التعليم نفسها عاجزة مقصرة؟ هل العيب واحد
من هذين الأمرين أو هما جميعاً. أولاً هذا ولا ذاك بل هو التنافر وعدم
الانسجام بين المبادئ والأعمال؟ أليس من المحتمل أن تكون علة الضعف
هي الامتحانات والعناية بها والإسراف فيها، أو هي المناهج وما تحمله من
مسائل لا تسيفها تلك المدارك الفجة ولا تحتماها تلك الكواهل الصغيرة
الليئة، أو هم المعلمون وطرائقهم وأساليبهم، أو النظم المدرسية العامة، وما
هي عليه من شدة أو لين؟ نقول أليس من المحتمل أن يكون واحد من
أولئك أو تكون كلها أو بعضها موطن الضعف وعلة النقص في تعليم
هذا النشء الصغير؟ كل هذا جائز محتمل ولكنه يعني أن الشروع في
أي تغيير مهما كان نوعه لا يمكن أن يفيد الفائدة المرجوة ما لم تتعرف
الداء في مواطنه وتحسسه في مظاهره، أما أن تقتصر أعمالنا على تغييرات
جزئية من حذف مادة وإضافة أخرى أو «ترحيل» موضوع أو جزء
من موضوع من سنة إلى سنة سابقة أو لاحقة فكل ذلك لا يعدو أن يكون
من باب التخفيف أو التسكين المؤقت ولكنه لا يؤدي بنا إلى تلك الغاية

التي ننشدها جميعاً من إقامة نظامنا التعليمي على أساس ثابت مكين
ويخيل إلينا بل نكاد نجزم بأن الفكرة العامة المسيطرة على التعليم
الابتدائي هي موطن الداء وأس البلاء، نعم هي الفكرة العامة التي تحتاج
إلى إعادة النظر قبل أن نشرع في تعديل المنهاج، فما الأساس الذي كان وما
زال يقوم عليه منهاج المدارس الابتدائية في كل تعديل سابق؟ ما الغاية
التي نرعى إليها من التعليم الابتدائي؟ جميع رجال التعليم يجيئونك من فورهم
بأن غاية هذا النوع من التعليم « إعداد الأطفال للمدارس الثانوية » وقد
يردفون جوابهم هذا بأن نحو ٨٥ ٪ ممن أمموا المرحلة الابتدائية يقصدون
إلى المدارس الثانوية ولا يبغيون عنها حولا، أو على الأقل كانت الحال
كذلك من بضع سنوات قبل انتشار المدارس الصناعية، ومن ثم كان كل
تغيير يراد إدخاله على منهاج الابتدائي يجب أن يجري في ضوء هذه الفكرة
وفي حدودها فإذا لاحظت أن منهاج التعليم الثانوي قد عدل في العام
الماضي وحدد مبدؤه ونهايته وعرف أوله وآخره وإذا لاحظت كذلك
أن من الواجب — كما أشار معالي الوزير في خطبته يوم عقد اللجنة —
أن نحكم الربط بين مرحلتى الابتدائي والثانوي وتؤكد الصلة بين منهاجيهما
إذا لاحظت ذلك كانت النتيجة الطبيعية التي لا مفر منها والتي لا نجد عنها
محيصاً هي أن الطفل في هذه المرحلة الابتدائية يجب أن يلم بمختلف المسائل
والمواد والموضوعات التي تؤهله للاستمرار في الدراسة الثانوية. وإن
شئت فقل إن منهاج الثانوي يجب أن يكون المسيطر على كل ما يعلم في
الابتدائي فإن شاء وسّع من نطاقه وإن شاء نقص من أطرافه.

هذا هو الوضع الذي شئت التغييرات السابقة كلها أن يكون للتعليم
الابتدائي فهو إعداد للتعليم الثانوي ويجب أن يلم الطفل فيه بما يؤهله للتعليم
الثانوي وما دام منهاجه الثانوي قد حدد وعرفت مبتدآته فمن واجب التعليم

الابتدائي أن يزود الأطفال بما دون ذلك من حقائق ومسائل وموضوعات ليتسنى لهم الاستمرار في التعليم الثانوي، فهل تعجب بعد ذلك إذا شعرنا كما تشعر الوزارة نفسها — بأن منهاج هذا النوع من التعليم مازال يحمل من الموضوعات والمسائل ما لا يتفق هو ومدارك الأحداث؟

ماذا يصنع واضع المنهاج إذا كانت فكرة الإعداد للدارس الثانوية لا تبرح خياله؟ ماذا يضع وماذا يدع إذا كان يعمل تحت تأثير الإعداد للدارس الثانوية؟ هو لا يفكر في هذه المرحلة التي يضع لها بقدر ما يفكر في المرحلة التي تليها، هو لا يفكر في الطفل ولكنه يفكر في الشاب الذي سينتهي إليه الطفل بل هو يحرص على أن يسرع بالطفولة إلى دور الشباب ويعجل بها إلى تلك الحياة التي تنتظرها والتي لا بد ستحيها إن عاجلا أو آجلا.

هذه واحدة ولكنها لا تعبر — كما يقول الانجليز — إلا عن نصف الحقيقة فاسمع الباقي، كيف نطمئن إلى أن أطفالنا قد ألموا إلما ما كافياً بتلك الحقائق والموضوعات والمواد التي تهيئهم للتعليم الثانوي وتجعل استمرارهم في تلك المرحلة المقبلة ممكناً ميسوراً؟ جواب ذلك واضح بسيط. الامتحانات !! امتحانات شهرية، امتحانات سنوية، امتحانات شفهية وتجريبية، امتحانات تجريبية، امتحانات كلها حضر مفتش أو ألم بالمدرسة مراقب، امتحانات كلها أراد الناظر وهو لا يريد إلا الامتحانات، ولا يعمل إلا للامتحانات، امتحانات حيثما حللت وأينما ذهبت وقد سرت عدوى الامتحان إلى ما دون المدارس الابتدائية من رياض الأطفال.

وزاد الأمر ضعفاً على إباله الاعتقاد السائد بأن نتائج الامتحان مرتبطة بعمل المعلم أن خيراً أخيراً وأن شراً فئسراً، وأن المعلمين يجب أن يدركوا أن الوزارة لا تتوانى في أخذهم بالتواصي والأندام إن ساءت نتائج

الامتحان وليس المعلم وحده بل نظار المدارس ومفتشوها ومراقبوها أيضاً فقد أصبح الجميع تحت رحمة الامتحان ونتائج الامتحان . الواقع أن رجال التعليم أنفسهم قد أصبحوا في حيرة من أمر هذه الامتحانات ، فهم مضطرون من جهة إلى مجاراة سواد الناس فيما يرجونه لأنبائهم من توفيق في الامتحانات ، لكنهم يشعرون من جهة أخرى بأن عليهم تبعه شاقة نحو تعليم الأحداث تعليمياً ينمى مواهبهم ويهذب ميولهم ويعدّم للكفاح والمجادلة في الحياة فهل من المستطاع أن نوفق بين الأمرين ونجمع بين الغايتين ؟ إن جميع التجارب والمشاهدات تدلنا من سوء الحظ على أن الجمع بينهما متعذر إن لم يكن مستحيلاً مادام نظامنا التعليمي يسير على النهج الذي رسم له حتى الآن ، فالظاهر أن العناية بالتربية والعناية بالامتحانات تسيران في اتجاهين متضادين أو تسيران على الأقل في خطين متوازيين يستحيل علينا أن نجمعهما في نقطة واحدة إلا إذا أدخلنا على أحدهما تعديلاً يخرج به عن نظامه وشكله وطبيعته ، ولقد بذلنا في سبيل ذلك جهوداً متصلة ولكن كفة الامتحان قد رجحت كل شيء وسادت كل شيء حتى أصبحت الشاغل الأكبر الذي تستهان فيه العزائم وأسرخص الهمم وتتدافس فيه جميع المدارس والهيئات التعليمية فانه كلما ذكرت التربية أو التعليم وثب إلى خيالنا النهايات الصغرى والكبرى والنسب المئوية للنجاح والرسوب ، أما الطفولة ومواهبها وحقوقها ، أما تربية المدارك وشحذ الملاحظة واستثارة النشاط الذاتي في الأحداث . أما تغذية العواطف وتهذيب الخيال وتقوية الشخصية وبعث الشعور بالإنسانية فكل ذلك هباء في هباء ، كله عبث وباطل ومحال ، كله تلفيق من مبتكرات المربين وأوهام العلماء وأحلامهم ، ثم كيف تستطيع أن تحمل المدرس على العناية بشيء من ذلك وبين يديه منهاج حافل مشحون ، وسوط الامتحان يلهب

ظهوره ، وسيف العقوبة مضيت فوق رأسه .
 هذا هو الشطر الثاني من قصة التعليم الابتدائي وهل ، أنا بحاجة إلى
 أن أسجل هنا ما ترده السنة رجال التعليم فيما بينهم من أن مدارسنا قد
 أصبحت أشبه بمعامل للنجاح في الامتحان منها بمعاهد للتربية ،
 الواقع أن مشكلة التعليم الابتدائي تكاد تنحصر في أمرين لا ثالث لهما
 (أولهما) العناية باختيار نوع التجارب التي تقدم للأطفال في هذه السن
 الصغيرة .

(وثانيهما) الأسلوب الذي يجب أن يتبع في تزويد النشء بهذه
 التجارب ، فالتعليم الابتدائي يكون الشطر الأكبر من الطفولة ، ويجب أن
 يمتاز من بين مراحل التعليم الأخرى بهذين الأمرين ، لكن فكرة الإعداد
 للدارس الثانوية قد ذهبت بالأول على حين قضت الامتحانات والإسراف
 فيها على الثاني .

هذه صورة عامة بمحتملة من عيوب التعليم الابتدائي لا يخلو من شك
 في أنها ستعال من عناية اللجنة أو في نصيب ، أما جوه الإصلاح فسأرجئها
 إلى العدد التالي إن شاء الله .

